من توجيهات النبوة

للشيخ : علي عبد المنعم عبد الحميد
المستشار الثقافي في وزارة الأوقاف

عن عبد الرحمن بن صخر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما فى الدنيا ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . »

رواه الشيخان : البخارى ومسلم ، واللفظ للامام مسلم .

تمهيد :

كل يوم تطلع شمسه ، أدرك جديدا من عظمة الاسلام ، ودقة تقييمه للحوادث الجارية ، واحكامه : وصف الأدواء وعمق ادراكه لنتائج اهمالها ونفاذ البصيرة فى تركيب الدواء ، ويزول عجبى حين أعود الى نفسى وايمانى وأصل الى أن موحى كل شىء ومفصل جميع الآيات(١) هو العليم الخبير ، ولو تجرد

(١) لا أعنى آيات القرآن الكريم وانما أعنى الآيات الواردة فى قوله تعالى (وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) .

شخص من ايمانه مع فضل عقل وقليل من بصيرة وادراك ووضع أمامه التفاصيل الاسلامية ، وبحث طالبا الحقيقة غير مكابر ولا متعنت لألفى الذى وجدنا لا يقبل كماله جدلا ، ولا يبقى معه رأى لقائل ، ولا وزن لبحث باحث فى النواحى التى فصلها ، ولوفر الناس على أنفسهم أرواحا أزهقتها خلافات الرأى وأبادتها طرائق المفكرين الذين اعتمدوا على التجربة فى أمور لا تخضع للتجربة بل لا تحتاج اليها بعد أن سلط الاسلام عليها أضواءه فبدت ليلة بدر لا ليلة محاق ..

عاج واضطرب القرن التاسع عشر الميلادى سائرا فى طريق ثورات وأرهاقات ذر قرنها فى أسلاف له سبقت ومضت مع الزمان الذى مضى ، والهدف والغاية بل الرجاء والأمل الذى نشده وينشده الجميع هو — كما يقولون — العيش الكريم لكل المستويات ، بل قالوا : لا مستويات وانما هو واحد لا يزيد(٢) ومضى قرنان الا قليلا اذا صرفنا القول عن ما عجت ومادت به عصور انقرضت من فتن وانقلابات فكرية وتبعتها حروب وقتال ، أقول : مضى قرنان فتعالوا ننظر النتائج ونتساءل : هل وصلوا الى نتائج أم لم يصلوا والجواب : أنهم وصلوا وأنهم لم يصلوا !! ولا تناقض هنا ولا تضاد . فما وصلوا اليه هو الفوضى بعينها فوضى شعبية وارهاق للانسانية وقتل للحرية قتل بالمعنى المراد من الكلمة ، بل ابادة كاملة الا من استطاع الفرار ولجأ الى مأمن ، ونقف هنا مع الزمان لحظات لا تطول لنتلقى الجواب على تساؤل وارد ولا ريب !! ذلكم التساؤل : كيف تقولون بوجود ضغط وارهاق فى الوقت الذى يحصلون فيه على كشوفات تصل بهم الى محاولة غزو الفضاء بل ارتياد القريب منه فعلا ؟ وما أسرع ما نتلقى الجواب من مصادره التى لا تعدو فى أحكامها الحق والمنطق ، وكان الرد على هذا التساؤل ما نصه : نعم يا سيدى هناك كشف لبعض مخبآت الكون وأسراره لا ننكرها والا كنا كمن يعمى عن ثلوج الشمال وأمطار الاستواء فاسمع : ان مصدر تلك الكشوف علماء أحيطوا بسياج حديدى يحول بينهم وبين ما يجرى بعيدا عنهم ، وان كان فى أوطانهم ثم أغدق عليهم ما يريدون وخولوا ما يشتهون دون قيد أو شرط ، مال ، غذاء ، إغراء ، قضاء شهوات ، متاع ... الخ كل ما يخطر ببالهم ولأضرب لك مثلا ! هل رأيت الجنود فى الميدان مع المرفهات يساقون الى الموت ومعهم ما يبتغون ، هناك — لدى العلماء المعنيين — الأصل وهنا — فى ميدان القتال — الصورة المنعكسة وان شئت فقل انها الناشئة عن الانعكاس « REFLECHIZ » ولعلك أدركت الجواب أنها الحرية تطلب للجميع ولا يصل اليها الا واحد بالمليون .

وأما أنهم لم يصلوا الى نتائج حاسمة فيما أرادوا فهذا جوابهم هم حقيقة منطقهم القولى وواقعهم الفعلى مع أنهم حاولوا التطبيق ، ولا يقول التاريخ أنهم طبقوا فعلا ، فالقلم الحر لا يخطئ الا ما يعتقد والا ما به يؤمن مهما جر ذلك من بلاء أو لاقى من عنت« فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل » هذا ايمانى ولا أجبر أحدا على ايمان « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » ..

---

(٢) بينا فى مقال سبق أن وحدة الطبقات محالة ، وان الاختلاف فى صالح الحضارة الانسانية والتقدم العمرانى .

وأعود الى الاسلام باحثا فأنا مؤمن دائما وأعرض عرضا مستقى من مصادره من معدنه « والشيء من معدنه لا يستغرب » من محمد بن عبد الله سيدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وسأمر بالحديث الشريف شارحا ولعل من يتصفح يحاول أن يتعمق فكرا وأن يصل الى نتائج ، فما عجز فلاسفة الدنيا الى الآن عن تحديده حدده ووضحه الاسلام وفصله رسول الاسلام .

١ ــ من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة :

ما أكثر كرب الدنيا : الجوع كربة ، والعرى كربة ، والجهل كربة ، والغربة كربة ، وفقد الأحباب كربة ، والحروب كربات ، ولو ذهبت أسرد كروب الدنيا لطال القول ، وضاق المقام عن الاستيعاب وفى الدنيا من يستطيع سد الرمق بلقمة ، وستر العورة بخرقة ، ومحو الجهل بقليل علم ، ورد المغترب ابن السبيل الى وطنه ، وتعزية الفاقد أحبابه ولو بكلمة طيبة ، وأخيرا فى الدنيا من يستطيع ايقاف المجازر البشرية الدائرة الرحى فى كل مكان بكلمة ، باشارة فاذا تلاشت تلك السبعة العجاف اللاتى يأكلن ما يقدم لهن ، المميتة للنفوس الكريمة ، المبيدة للأخلاق الكريمة الحاملة على النفاق ، مورد الفجور والخنا ، ملعب الشهوات متصلة البرءاء . أقول : اذا اختفت عم الخير وساد البشر ، وتفتحت العقول ، وتحاب البشر ، وتلاقى الجميع فى رحاب خالقهم أخوة متصافين هذا فى دنياهم وما أمر الآخرة ، وما ادخره الله هناك من أجر للممتثلين فلا تدرك منه الا اسمه ، وأما تفاصيله فتسمو على مداركنا ولا يصل اليها تخيلنا ، فما عنده سبحانه هو ما استأثر بمعرفة كنهه وتفاصيله ، ووعد الله لا يتخلف جزاء وفاقا ، وهل جزاء الاحسان الا الاحسان .

٢ ــ ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة :

تفصيل بعد اجمال لتدرك النفوس المستعدة جمال القول وحسن نتائج الفعل ، وأى أثر أبقى وأقوى وأكثر حسنا ممن يعمد الى بعض فضل ما له الذى لا يضيره انفاقه ، ويمضى به فى سواد الليل الى دار محتاج يعرف بسيماه لا يسأل الناس الحافا ، أو الى مقر معتر أو بيت بائس فقير ويطرق بخير ويمد يده بالفضل ، ثم يؤوب الى مصدره آمنا فى رعاية الله مطمئنا هادىء النفس قرير العين لأنه أدى واجبا يغفل عنه الكثيرون ، وأعان محتاجا ، ويسر على معسر ، وليس هذا فقط فقد ذكر سادتنا العلماء السابقون رحمهم الله تعالى بقدر ما أدوا لدين الله من خدمات ، قالوا : هو فكاك أسير الدين والتنازل عنه للمعسر ، فهذا مما لا يفيد الدائن وان كان نفعا للمدين ، ووعد الله أنه سيرد اليه يسر الدنيا بركة فى المال فى الولد فى العافية وأما فى الآخرة فما أحوجه الى تيسير الله وعونه هناك فى المستقر الموحش الذى لا ينفع فيه الا عون الله وحده . وقد ورد فى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كان رجل يداين الناس » . فكان يقول لفتاه « اذا أتيت معسرا فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا فلقى الله فتجاوز عنه » وروى مسلم عن أبى

قتادة رضى الله عنه أنه طلب غريما فتوارى ثم وجده فقال « انى معسر ، فقال » : فانى سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول « من سره أن ينجيه الله عز وجل يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه » ولمسلم أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أنظر معسرا أو وضع له أظله الله فى ظله » .

٣ ـــ ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة :

كل انسان معرض للخطأ ، والمعيبات لا يخلو منها مخلوق ، والسيئات يواقعها كل سار على قدم فالمجرد من الزلات لا وجود له فى الوجود الا رسول أو ملك كريم ، والمتجافى عن الهفوات ليس نادرا وانما هو معدوم ، وكل لا يحب أن يرى غيره نقائصه ، ولا أن يطلع على معايبه ، ويحاول جاهدا ـــ أن كانت عنده بقية متبقية من حياء ـــ أن يتوارى عن الأنظار ، وكثير من الناس مستور ، ولا يحب أن يجاهر بالسوء من القول أو الهجر من الفعل ، ومع هذا فقد يرى بعض خاصته ممن لهم به مساس بعض ما عنده ، وقل من يثبت على وفاء ، وندر من يقيم على ود ، فالقلوب متقلبة ، وكل يغنى على ليلاه ، وقد تبدو ليلى فى صورة رائعة حين التشنيع على الآخرين ، وهنا يجىء الاسلام بالعلاج الرحيم ، والقول السديد الكريم فى رفق ولطف ويسر دون عنت يدخل الى النفوس نسيما عليلا وأمنا مقيما وراحة قلب وأنس فؤاد ، ويعطى الأجر حين يطلب العمل فطبيعة البشر انتظار العاجلة فيقول سيد القائلين وأفضل الناطقين بالضاد « ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة » أطلع على عورته وسترها ، وعرف من أين يصله السوء ودافع عنه ، وخاصة اذا لم يكن الواقع فى الزلة مجاهرا ولا معتادا ، ولا معروفا بين الناس بسوء ، فأخفى سيئته وأقال عثاره ، فما جزاؤه فى الدنيا نعم الجزاء أن يهىء الله له من يستره اذا زل ، ومن يأخذ بيده اذا عثر ، وكما تدين تدان وأما فى الآخرة فاسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم مفصلا : روى أبو داود فى سننه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رد عن عرض أخيه رد الله وجهه عن النار يوم القيامة » وقال عليه الصلاة والسلام « من رمى مسلما بشىء يريد أن يشينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » ولا أدرى كيف ؟ وانما تفصيل ذلك عند علام الغيوب ، وقال عليه الصلاة والسلام « ما من مسلم يخذل امرأ مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص من عرضه الا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرىء ينصر مسلما فى موطن ينتقص فيه من حرمته ، وينتهك فيه عرضه الا نصره الله تعالى فى موطن يحب فيه نصرته » .

٤ ـــ والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه :

وهذا نوع من الجزاء العاجل والآجل معا ، فبعد التفصيل فى المواطن الثلاث أجمل القول جامعا كل أنواع المعونات وأماكنها وكيفيتها وكمياتها فى بذل العبد عونه لأخيه فى مواطن ضعفه ووقت حاجته اليه : فينفس عنه كربة وييسر

عليه ، ويستر عورته ويقيل عثرته ، ويداوى كلومه ويذكره بما يحب أن يذكر به ، وما جزاء ذلك الا عون الله وأكرم به من عون ، عون من بيده مقاليد الأمور سبحانك ربى ما أكرمك وما أعظم ما أوحيت الى رسولك ، وما أبين ما وصى به حبيبك وخليلك عليه وعلى آله الصلاة والسلام فهل عقل وتدبر أتباع سيدى رسول الله ، أم هم بالاسم أتباع وفى الواقع أحمال وأعباء ..!!

٥ — من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة :

ما أكثر ما حث الاسلام على العلم ، وما أكثر ما شاد بالعلماء ، وما أوضح الآيات البينات المحكمات فى كتاب الله التى تدعو الى العلم وترفع من شأنه وتحث عليه ، وان الاستقصاء فى هذا يطول وكتاب الله مفتوح لمن يريد معرفة وفقها ، وخلاصة رأى الاسلام فى هذا أن أمة تقيم على جهل ليست أمة مسلمة ، وليست منتمية الى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فمحمد سيد العلماء ورسول الهداية ونبراس الوجود ، وان نشأ لا يقرأ ولا يكتب ، ولكن الله اجتباه وعلمه فكيف يكون من أتباعه جاهل أو مقيم على جهل ما دام يجد الى التفقه فى مختلف العلوم سبيلا ؟ وفى الحديث الشريف دعوة قوية صريحة ، بل صرخة داوية تردد أصداءها أركان الوجود ، تهيب بالمؤمنين أن هلموا الى مناهل العلم فاغترفوا منها حيثما وجدت « خذ الحكمة ولو من فم الكافر » وأنى وجدت ، فلا حياة بدون علم ... وكل لذة ومتعة لها سن معينة فى مراحل حياة الانسان تزول بزوالها ، وتمضى معها الا لذة العلم والا حب العلم ، فانها المستمرة الدائمة ما دامت الحياة ، فمهما بلغ من الكبر عتيا فلا يزال شغوفا بالتعلم والاستزادة — ان كان عاقلا — وهو الميدان الكريم الذى يتبارى فيه ويتنافس أصحاب العقول الممتازة فى هذه الدنيا دون مساس بحرية الآخرين أو النيل منهم ... فميدان العلم هو ميدان الجهاد من المهد الى اللحد ، الجهاد الشريف النافع المنتج المفيد .. الاقبال على العلم يفتح أبواب المعرفة ، ويسمو بالخلق وينهض بالأمم ويرقى بالشعوب ، ويقدم المتأخر ، ويرفع من لم ينهض به مال أو جاه ، ويجعله فى مركز قيادى ... ولو عرف المسلمون قيمة توجيه الرسول العظيم وعضوا عليه بالنواجذ لكان لهم السبق فى كل مجال ، ولظلت لهم القيادة والصدارة عبر الزمان ، وما أحلى هذا التعبير النبوى الجميل « سهل الله له به طريقا الى الجنة » أى علم هذا يوصل الى الجنة ، ويفتح أبواب الفردوس ويعبد الطريق اليها ... أهو علم السنن والفرائض ؟ أهو معرفة حدود الله التى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ أم هى علوم الدنيا — كما يحلو للبعض أن يسميها من كشوف وبحوث فنية بحتة ، ومعرفة أسرار الذرة وقنابلها وصواريخها ، وما سيعرف من أسرار ؟ والجواب .. جواب الفاحص الفاقه لما نزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ... هو : اطلبوا كل العلوم دون استثناء ، فلا يوجد فى الاسلام شىء اسمه علوم دنيا فقط ولا علوم دين فقط ، فهذا متمم لذاك وجزء منه ، والنقص من أحدهما نقص من الخير ، وفتح ثغرة

للهلاك والدمار دينا ودنيا . فمتى يستطاع الحفاظ على حدود الله ؟ وكيف يدافع عنها ، لا يمكن هذا الا بمعرفة آلة الحفاظ والوصول اليها ، وشاء الله عز وجل أن يجعل لكل هدف سلاحا ، فمن ملك ناصية العلوم الكونية وعرف أسرارها تسنم مركز الصدارة — كما هو مشاهد لا يحتاج الى دليل — وبهذا يستطيع الحفاظ على ما استحفظ عليه من حدود الله — أما اذا تسلمت زمام تلك الأسرار أيد بعيدة عن هدى الله ، فحينئذ يكون الدمار الذى يعيش فيه ، ويسير اليه حثيثا عصرنا — .. واسمعوا .. « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ولا أزيد .... فهل درى النائمون ؟ وهل استيقظ الغافلون ... الى أى زمان يظلون متخلفين ؟ الى أى الحقب يا رب يستمرون تابعين لا متبوعين .. علم ذلك عندك وحدك ... فاللهم أيقظهم ووجههم وفقهم حدودك ، وامض بهم الى حيث يتعلمون آلة الدفاع عنها ، فالعلم العلم والجد فى طلبه الجد أيها السادرون فى غى ان كنتم تعقلون ....

٦ — وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ... الخ

لا يمكن للسارى أن يمضى فى طريقه ، ولا للحائر أن يهتدى ولا لمريد الخير أن يقبل عليه باخلاص ، ولا لعالم لما مر من توجيه كريم فى هذا الحديث الشريف أن يؤديه كأمانة يجب أن تؤدى الا اذا عرف هؤلاء ربهم واعتصموا به ولاذوا بحماه . وقاموا بواجب طاعته ، ولهذا حث سيد الخلق على عمارة المساجد بالعبادة — لا بالفرش والنفائس — وجعل الله زوارها جلساء ملائكته ، وجعل الملائكة والرسل شفعاء محبيها ، وهنا يرد السؤال ذو المصدر الجاهل الغافل وهو ما جعلته مقدمة البحث وجوابه هو جوابه .. والا فقل لى بربك : هل من الرقى اعلان الحروب على الضعفاء ؟ وهل من التقدم الحضارى قتل الأنفس وابادتها ؟ وهل من وسائل العمران المادى ظلم الحاكمين المتسلطين ؟ وما نراه من أحوال شعوب معاصرة هو برق خلب فالقنا والقنابل اذ لم يعصمها دين وخلق تبيد كل حضارة ، وتعوق كل تقدم ، وتأتى على الهناء والرخاء ، فلا يمكن أن تثبت حضارة ذات قيمة للانسان الا فى مواطن الحرية التامة المطلقة لا مطلق حرية .. ولا ينظم تلك الآلات المجنونة ، ويرد اليها صوابها ، ويوجهها الى المعامل والمصانع الا عقل يعرف الله ويعرف عظمته ، وحديث المعاصرين حديث يطول لا يوقف التساؤل عنه وفى مقال عابر محدود الصفحات مرتبط بزمان ... ولعل الله يهيء لى أن أطيل القول فى هذا ففى النفس منه غصة وأى غصة

٧ — ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه :

قضية الانساب والفخر بها ليست واردة فى الاسلام ، ولا يعيرها أى اهتمام ، فكثير من قريش سيصلى سقر ، وعديد من بنى هاشم فى الجحيم ، ولا نسب أعلى من نسب ينتمى اليه رسل الله ، فكيف ... وولد نوح فى النار وكذلك زوجته مع زوجة لوط .. — وعلى النقيض — آسية امرأة فرعون فى

(البقية على ص ٣٤)

أعلى عليين من الجنة والرضوان ... وهل استمعتم الى وصايا رسول الله لأقربائه الأقربين ومن أقرب الى قلبه وأحب اليه من فلذة كبده ... الزهراء ... فاطمة بنت محمد .. يقول للجميع رسول الله .. اعملوا فانى لا أغنى عنكم من الله شيئا .... اعملوا لتكونوا مع صهيب وبلال فى رحمة من الله ورضوان ...

وهل رنا الى هذا الجزء من الحديث الشريف من يرى عظمة بعض النظم فى رفع الوضعاء ، وتسنم بعض أهل الحرف الدنيا غارب السلطة والاقتدار .. هل حاولوا أن يتعرفوا على الاسلام ليدركوا أن أبواب الدنيا فى جميع مظاهرها الكريمة مفتوحة للعاملين لا لذوى الأنساب الجوفاء ... هل رأوا ابن مكتوم يعاتب فيه رسول الله بقرآن يتلى ويتعبد به الى يوم يرث الله الأرض ومن عليها ، وهل دروا أسماء القادة فى عهد رسول الله ليدركوا أن العمل هو كل شىء ولا شىء للانساب ...

وبعد فأجزم عن ايمان وأتكلم بقوة يقين ... وأدافع بالبرهان وأدلى بحجتى فى أوضح بيان وأدعو الأمم المعاصرة الى أن تصيخ سمعا الى الاسلام وتقرأ هذا الحديث وأمثاله وتعى القرآن وتوجيهاته لتهدأ ، وتستريح من عناء المذاهب والأفكار الفاسدة التى يموج العالم المعاصر بها دون الوصول الى هدف أو تحقيق أى نتيجة فى صالح الانسانية الحرة الكريمة ، وليقوم عالم متحضر يحافظ على حضارته ، حضارة تختفى معها الآلام ، وتجف الدموع دموع الثكالى والأيامى واليتامى ، ويكسى العراه ، ويطعم الجياع ...

ومع هذا لا أنسى الواقع الذى نعيشه وتعيشه شعوب تحمل — للأسف الشديد اسم الاسلام ... وهنا أقول وأتساءل وأرجو الجواب ممن يستطيع الجواب :

١ — هل غفلة الشعوب المتسمة بالاسلام ورضاها بالاستعباد من الاسلام ؟

٢ — هل جهل المسلمين ورضاهم بالأدنى ، وعدم اشتراكهم فى المخترعات الحديثة من الاسلام ؟

٣ — هل اغلاق العقول دون كل منطق مفيد من الاسلام ؟

٤ — هل حكم المتعالمين بالكفر على من يتعلم لغة أجنبية أو يقول بكروية الأرض فى القرن الحاضر من الاسلام ؟

٥ — هل الجبن والتأخر والانحطاط والرضا بالظلم من الاسلام ؟

وأصيح من كل قلبى كما ينادى منادى الله كل يوم خمس مرات من أعلى مكان : لا ، وألف لا : ليس شىء من هذا من الاسلام ، ولا يمت بصلة الى أصول الاسلام أو فروع الاسلام .

فالاسلام ما عرفت فى هذا الحديث ، وما جاء فى القرآن وفى كل حديث ... « وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »

والى لقاء فى عام جديد ان كان لنا فى الدنيا بقاء والسلام على من اتبع الهدى .